

الاستعارة الإيديولوجية كاستعمار للخطاب
مدخل نقدي لدراسة تفاعلات الخطاب التربوي

**The Ideological metaphor as a discursive colonization
A critical introduction to Study educational discourse
interactions**

صوضان محمد

باحث بسلك الدكتوراه، مختبر اللغات والديداكتيك والوسائط والدراماتورجيا - كلية اللغات والآداب
والفنون- جامعة ابن طفيل/ القنيطرة.

mohamed.saoudane@uit.ac.ma

تاريخ النشر: 2023/06/30	تاريخ القبول: 2023/04/12	تاريخ الإرسال: 2023/03/03
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تسعى هذه المساهمة إلى تقديم مدخل بنائي اجتماعي نقدي لدراسة الخطاب بشكل عام والخطاب التربوي بشكل خاص، وتنطلق من مفهوم الخطاب بالمعنى الفوكوي الذي ورثه التحليل النقدي للخطاب وخاصة نموذج نورمان فيركلاف الجدلي الذي يفترض أن العلاقة بين الخطاب والمجتمع علاقة دياكتيكية؛ يشكل الخطاب المجتمع ويتشكل به عبر وساطة الممارسات الاجتماعية التي يعتبر الخطاب أبرز تجل سيميائي لها. وتفترض، تبعا لفوكو وفيركلاف، أن الخطاب طريقة من طرق صنع المعنى وتشكيل حقول ومجالات الحياة الاجتماعية، وما دام لكل حقل/ مجال خطابه أو خطاباته المتنافسة التي تعكس تنظيمه الداخلي وتمثيلاته والعلاقات بين الفاعلين في الحقل، فإن هذه الخطابات المنتمية إلى حقول متجانسة أو مختلفة تتحدد علاقاتها من خلال التنافس والصراع والزوع إلى الهيمنة، وهو ما يجعل بعض الخطابات وبالتالي الحقول التي تمثلها سيميائيا تستعمر خطابات أخرى وتفرض عليها عن طريق الإكراه المنظور والتصورات والتنظيم الداخلي للخطاب

المستعمر، ولعل أبرز خطاب يستعمر خطابات الحياة الاجتماعية، ومن ضمنها الخطاب التربوي، هو خطاب السوق المدعوم بإيديولوجية الرأسمالية والليبرالية الغربية. وإذا كانت هذه المساهمة تستضمر هذا الافتراض فإنها ستولي الجانب التنظيري أهمية كبرى باعتبارها مدخلا يمكن أن يساعد في بحث العلاقة بين الخطابات المتنافسة في الفضاء الخطابي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الخطاب؛ الاستعمار؛ الهيمنة؛ الإيديولوجيا؛ الخطاب التربوي.

abstract:

This contribution seeks to provide a socio-constructivist critique of discourse in general and educational discourse in particular. The study embarks from a Foucauldian conception of discourse, which has since been influential in the critique of discourse analysis. To that, Norman Fairclough's dialectical analysis, which presupposes a dialectic relationship between discourse and society; in the sense that the former forms society and is reciprocally formed by the latter. This effect is achieved by means of intermediary social practices, which are deemed as the most conspicuous semiotic manifestations of discourse in the Faircloughian sense. This paper, based on Foucault's and Fairclough's conceptualizations of discourse, contends that discourse is only one way among many others by means of which meaning is created and hence all realms of social life. Moreover, the paper holds the view that as long as each realm has its own peculiar or contending discourses, which reflect the bulk of its internal organizational structure, representations and the relationships existing between its actors, these discourses are accordingly defined by relations of conflict, domination and hegemony. As a result, some of these discourses gain the power to control other contending discourses by imposing their own peculiar worldview and conceptions on the less powerful discourse. An example of this is the discourse appropriated by the world market, which is essentially undergirded by ideological capitalism and liberalism. Therefore, while intending on

shedding more light on educational discourse, along with the general one, this paper will be significantly based on the theoretical aspect of discourse as a way of introduction to the relationship between contending discourses of the modern time .

Keywords: discourse, colonialism, domination, ideology, educational discourse.

1. مقدمة:

تتحدد الاستعارة بالمفهوم المعرفي الإدراكي بوصفها آلية للتفكير والتعبير عن تجربة معينة من منظور تجربة أخرى، وتهدف إلى إتاحة فهم جزئي لنوع من التجارب من خلال نوع آخر؛ إما ببنية تصور ما، استعاريا، عن طريق تصور آخر (الاستعارات البنيوية)، أو تنظيم نسق كامل من التصورات باعتماد نسق آخر (الاستعارات الاتجاهية)، أو رؤية الأحداث والنشاطات والأحاسيس والأفكار باعتبارها كيانات وأشياء محسوسة (الاستعارات الأنطولوجية). تلتقي هذه الأنماط الاستعارية كلها في الطبيعة المعرفية التي تجد أساسها في التفكير والتمثيل الذاتيين والاجتماعيين للتجربة البشرية في علاقاتها بالعالم في مستوياته الطبيعية والنفسية والاجتماعية والثقافية والسياسية وغيرها. وهنا بالذات تتقاطع الاستعارة، بهذا المعنى، مع الإيديولوجيا بوصفهما، معا، تتأسسان على المعرفة الذاتية والجماعية وتوسعان إلى فهم العالم وتفسيره وإعادة إنتاجه انطلاقا من الأطر المعرفية التي تتمركز عليها الذوات.

إذا كانت الاستعارة آلية محايثة للخطاب بمعناه الواسع المحيل على جميع أشكال التواصل الإنساني وتستغرق جل أنظمة إنتاج المعنى وبناء المعرفة وأنظمة الخطاب المختلفة، فإن الإيديولوجيا بالمثل، بوصفها- في أبسط تحديداتها- منظورا ورؤية للعالم يعكس موقف فئة معينة، لا يخلو منها أي تفاعل إنساني. وتزداد هذه العلاقة بين الاستعارة والإيديولوجيا- وخاصة في الحياة المعاصرة حيث هيمنة قيم السوق ونموذج الحياة الغربية- في التواشج بفعل سلطة الخطاب وأنظمة إنتاج المعنى؛ الوسيلة الأساس لتصريف الإيديولوجيات واستعمار مجالات خطابية من لدن الخطاب المهيمن؛ خطاب العولمة والليبرالية واقتصاد السوق، إلى درجة صارت معها بعض المجالات، الاجتماعية بشكل

خاص كالتعليم والصحة، تستعير مفاهيمها وتصوراتها، وتالياً، طريقة تنظيمها لمجالها وتمثيله واقعياً ومعرفياً من الخطاب المستعمر.

تسعى هذه المساهمة إلى بيان كيف أن بعض أنظمة الخطاب الخاصة بمستويات أو حقول اجتماعية معينة تستعير مبادئ وتصورات وتحديات أنظمة خطابية أخرى من مجالات وحقول اجتماعية أخرى لتعيد من خلال هذه العملية تعريف مجالاتها وتنظيمها وفق تلك المبادئ والتحديات والإيديولوجيات، وهذه العملية القائمة على استعارة أقل ما يقال عنها أنها إيديولوجية شكل من أشكال استعمار خطابات محددة خاصة بحقول معينة لخطابات أخرى في سياق يطبعه التنافس والسعي إلى هيمنة خطابات وأنظمة خطابية على أخرى وبالتالي إيديولوجيات على أخرى. وقد ارتأينا أن يكون نموذج الخطاب المستعمر الذي سنعرّج عليه لبيان هذا الشكل من الاستعارة الإيديولوجية أو الاستعمار الخطابي هو الخطاب التعليمي.

تنطلق هذه المساهمة من فرضية أن الخطاب التربوي وغيره من الخطابات المعاصرة تقوم على استعارة منظوراتها وتشكيل مجالاتها بتأثير من خطاب السوق بطريقة تسعى إلى تشكيل أنظمة خطاب المجالات الاجتماعية وفق مجال مفارق لأهدافها وقيمها وتنظيمها. وهذه الاستعارة توجهها إيديولوجية الخطاب المهيمن وسلطة الجماعات المهيمنة التي أحالتها استعارة مُكرّسة بقوة الاستعمار الخطابي الذي يفرض قيم وتصورات وتنظيم خطاب محدد على خطاب آخر، ويحاول إسقاط وتكريس تجربة مجال محدد على مجال آخر بفرض التصورات والتمثيلات الإيديولوجية للطبقة المهيمنة، بل ويضمن لها التطبيع ويرفعها إلى مرتبة الحس المشترك الذي يصير بدوره معيناً نردّه وإطاراً نصُدّر عنه في تجاربنا وفهمنا وتفسيرنا للعالم من حولنا. وتهدف، في الآن نفسه، إلى بيان أن الخطاب التعليمي، وغيره من الخطابات الاجتماعية على طول المعمور، بوصفه نتاج مجال اجتماعي وأنظمة خطابية تنتهي إلى هذا المجال بمؤسساته وقيمه وممارساته، قد استُعير من لدن خطاب السوق والرأسمالية واستعار منه آلياته التنظيمية والتصورية وتكنولوجياه الخطابية، مدفوعاً بإيديولوجيا الفاعلين الرأسماليين لتمثيل هذا الجانب من الواقع وفق منظور السوق الذي تم التطبيع معه وتقديمه في لبوس الحقيقة

المطلقة. وستنطلق، المساهمة، من التأسيس للمفاهيم المؤطرة لهذه المساهمة من التحليل النقدي للخطاب ابتداءً، وخاصة نموذج فيركلاف العلائقي الجدلي، الذي نعتبره في جزء كبير منه امتداداً لأفكار ميشال فوكو حول الخطاب ونظام الخطاب ولأفكار بورديو وهابرماس حول إعادة الإنتاج الاجتماعي والعنف الرمزي ونظرية الفعل التواصلي وأخلاقيات الخطاب والاستعمار الخطابي. وتركيزنا الأساس على هذه الإطار النظري والمنهجي مرده إلى أن الاستعارة لا تتحدد دلالتها الإيديولوجية إلا في علاقاتها بالخطاب بالمعنى الاجتماعي البنائي؛ إذ في علاقتها بالخطاب والأنظمة التي تحدده تتعين علاقاتها بالإيديولوجيا وبالحقول الاجتماعية التي يعد نظام الخطاب الواجهة السيميائية لتنظيمها وحدودها وعلاقاتها ومستوياتها وتركيباتها البنوية. لهذا الاعتبار احتفظنا بالتحديد المقدم للاستعارة في المجال المعرفي الإدراكي بوصفها طريقة للتعبير عن تجربة محددة بألفاظ أخرى، لكننا حاولنا ألا نشتغل بالتمثيلات الجزئية والأمثلة الدقيقة، وسمحنا لأنفسنا بتوسيع مجال التجربة ليشمل حقلاً اجتماعياً قائماً بنفسه وخطاباً كاملاً، بوصفه طريقة في التمثيل والفعل والتفاعل، لنرصد انطلاقاً من ذلك علاقة التفاعل بين الخطاب؛ استعارة واستعماراً، والموجهات الإيديولوجية التي تسند هذا التفاعل الإيديولوجي. أما عن اختيارنا لفيركلاف نورمان (Norman Fairclough) فمرده إلى أنه أول من تناول الاستعارة الإيديولوجية والاستعمار الخطابي من منظور تحليل الخطاب المدمج باللسانيات في نموذج العلائقي. لذلك يعتبر عمله من هذه الزاوية تطويراً لعمل ميشال فوكو (Michel Foucault) ويورغن هابرماس (Jürgen Habermas) اللذين تناولوا بعض هذه الجوانب انطلاقاً من العلوم الاجتماعية التي تشتغل في تحليلاتها للخطاب بالتمثيلات والتفاعلات الاجتماعية أكثر من انشغالها بأبعاده اللغوية.

2- الخطاب والإيديولوجيا والهيمنة:

1.2. الخطاب ونظام الخطاب:

يتأسس مفهوم الخطاب في تصور التحليل النقدي للخطاب على استلزام التحديدات المقدمة لهذا المفهوم في اللسانيات البنوية والمعرفية والوظيفية وفي العلوم الاجتماعية والدراسات الثقافية

ونظريات الأنواع الأدبية. وتلتقي هذه الروافد المتعددة لتشكيل هذا المفهوم تشكيلا بينيا لا ينظر إلى الخطاب في تحققه النصي أو الأجناسي أو التمثيلي التكويني فقط، بل بوصفه يحيل على التحقق المادي للغة والأعراف الاجتماعية والتواصلية التي تنظم استعمالها والتقاليد الخطابية التي تحدد أنماط هذا الاستعمال وخصائصه، ودور الخطاب في تكوين تمثيلات وتمثلات الأفراد حول وجودهم الاجتماعي والطبيعي والعقلي وفي تشكيل هذا الوجود وتأويله. لذلك فإن هذا المنظور للخطاب، الذي سنحدده أكثر بعد، سيفرض نمطا من التعامل مع اللغة لا باعتبارها بنيات ودلالات لسانية فقط (منظور اللسانيات) أو فعلا وممارسة في سياق اجتماعي (منظور التداوليات واللسانيات الاجتماعية والإثنوغرافيا وتحليل المحادثة والإثنوميثودولوجيا) ولا مجرد تشكيلات أجناسية تخضع لقواعد وتقاليد فنية (نظرية الأنواع الأدبية) ولا مجرد تمثيلات ذهنية عن الواقع الاجتماعي للأفراد تخضع لعمليات معرفية (منظور العلوم المعرفية) ولا نظاما سيميائيا مؤسسيا ينهض بدور تمثيل جوانب وحقول من العالم الاجتماعي وإنتاجها وإعادة إنتاجها أو تجديدها وتحولها (نظرية الخطاب عند فوكو وإرنستو لاكلو (Ernesto Laclau) وشانتال موف (Chantal Mouffe)). إن الخطاب في التصور العلائقي الجدلي لفيركلاف الذي سنعتمده ينظر إلى هذه المستويات في تعالقها وتشابكها، ومن ثم فإن أي تحديد يقصي مستوى من هذه المستويات منذور بتقويض إواليات عمل الخطاب في الحياة الاجتماعية وبالتالي قصور تحليلاته للعلاقة الجدلية بين الخطاب والمجتمع.

لا يميز التحليل النقدي للخطاب، ومقاربة فيركلاف داخله بشكل خاص، بين الخطاب واللغة على شاكلة الكثير من التيارات اللسانية وتحليل الخطاب، إذ، لا يفهم اللغة خارج الاستعمال، أي خارج الممارسة الاجتماعية التفاعلية التي تخضع للأبنية الاجتماعية إنتاجا وتلقيا. وينطلق من مسلمة مفادها أن استعمال اللغة بمستوياتها خاضع للمجتمع؛ "لأن اللغة، أولا، جزء من المجتمع وليست خارجة عنه بصورة ما، ولأن اللغة، ثانيا، عملية اجتماعية، كما أنها، ثالثا، عملية يتحكم فيها المجتمع، أي إنها تخضع لتحكم جوانب أخرى (غير لغوية) في المجتمع"⁽¹⁾. ويرى أن اللغة ظاهرة اجتماعية لا تنفك عن المجتمع ولا ترتبط به بعلاقة خارجية كالعديد من الظواهر الأخرى، بل تتشابك معه في علاقة داخلية وجدلية؛ فاللغة جزء من المجتمع، والظواهر اللغوية ظواهر اجتماعية فعلا، وإن تكن

من نمط خاص، كما أن الظواهر الاجتماعية، إلى حد ما ظواهر لغوية. وبيان ذلك بتعبير فيركلاف: "أن الظواهر اللغوية ظواهر اجتماعية، بمعنى؛ أنه حيثما تكلم الناس أو أنصتوا أو كتبوا أو قرؤوا، فإنما يفعلون ذلك بطرائق يحددها المجتمع ولها آثار اجتماعية [...] كما أن النشاط اللغوي الذي يجري في السياقات الاجتماعية (شأن جميع ألوان النشاط اللغوي) ليس مجرد انعكاس أو تعبير عن العمليات والممارسات الاجتماعية، بل إنه يمثل جزءا من هذه العمليات والممارسات" ⁽²⁾. إن هذه المماثلة بين الخطاب واللغة عند فيركلاف ناتج، كما سبق، من اعتبار اللغة شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعية، لا مجرد نشاط صرف للفرد أو مجرد رد فعل للمتغيرات السياقية. وهذا التحديد للغة/الخطاب "يؤكد على التفاعل بين المتكلم والسامع، أو بين الكاتب والقارئ، ومن ثم عمليات إنتاج وتفسير الكلام والكتابة إلى جانب سياق الحال الخاص باستعمال اللغة" ⁽³⁾. بل أكثر من ذلك إلى التفاعل مع المستويات المجردة للتكوينات الخطابية والبنى الاجتماعية.

يستعمل فيركلاف مصطلح الخطاب وفق ثلاثة مفاهيم؛ "(أ) صنع وتكوين المعنى بوصفه جزءا من العملية الاجتماعية؛ (ب) اللغة المرتبطة بحقل اجتماعي معين وممارسة اجتماعية معينة محددة؛ (الخطاب السياسي مثلا). (ج) طريقة تأويل جوانب من العالم مرتبط بمنظور اجتماعي محدد (الخطاب النيو-ليبرالي للعولمة مثلا)" ⁽⁴⁾. ويميز بين تحديدين للخطاب؛ "الخطاب بوصفه اسما مجردا ((discourse as (abstract noun)، يحيل على استعمال اللغة بالنظر إليه كممارسة اجتماعية، والخطاب بوصفه قابلا للعد؛ أي الخطابات بصيغة الجمع ((discourse as (count noun)، يدل على طرق متعددة للدلالة على التجربة من منظور معين" ⁽⁵⁾. وهو بهذا التحديد الأخير، القابل للتنوع، يعتبر الخطاب "طرقا" سيميائية لتفسير الجوانب المادية والاجتماعية والعقلية للعالم، والتي قد تتطابق عموما مع المواقع والمنظورات المختلفة للمجموعات المختلفة من الفاعلين الاجتماعيين" ⁽⁶⁾.

إن الخطاب بالمفهوم الأول مصطلح يشير إلى عملية التفاعل الاجتماعي برمته، والتي لا يمثل النص والأنظمة الأخرى لإنتاج المعنى إلا جزءا منها، وهي عملية تتضمن إلى جانب الأنظمة اللغوية والسيميائية لإنتاج المعنى، عملية الإنتاج التي يعتبر التحقق المادي للغة والأنظمة الأخرى من نواتجها،

وعملية التفسير التي تعتبرها كذلك، اللغة وأنظمة إنتاج الدلالة، من مواردها. وبخصوص المعنى الثاني يتبنى هذا المفهوم الموقف البنائي الاجتماعي للغة والخطاب في اللسانيات والعلوم الاجتماعية بوصفه يشير إلى الطرائق المختلفة في بناء مجالات المعرفة والممارسات الاجتماعية، ويسهم في تكوين جميع الأبعاد التي تشكل وتعيد البناء الاجتماعي بصورة مباشرة وغير مباشرة، بمعايير وأعرافه الخاصة، وكذلك العلاقات والهويات والمؤسسات التي تكمن وراءه⁽⁷⁾.

لا يقتصر الخطاب بوصفه ممارسة على نقل وتمثيل ووصف الكيانات والعلاقات الاجتماعية والعناصر المادية والطبيعية من العالم الاجتماعي، بل إنه ينتج هذه الكيانات والعلاقات والأبعاد لقدرته الهائلة على التكوين الاجتماعي باعتماد أساليب ونظم معرفية وخطابية تقليدية وخلافة. أي إنه يعيد إنتاج المجتمع بالإسهام في تكوين وبناء؛ الهويات الاجتماعية؛ والعلاقات الاجتماعية؛ وأنظمة المعرفة والدلالة⁽⁸⁾، وتغييره وتحويله. وبالعكس يشكل البناء الاجتماعي بأوسع معانيه الخطاب ويقبده على جميع المستويات؛ أي من جانب الطبقات والعلاقات الاجتماعية على المستوى المجتمعي، والعلاقات الخاصة بالمؤسسات [...]. ونظم التصنيف، وشتى المعايير والأعراف من ذوات الطبيعة الخطابية وغير الخطابية⁽⁹⁾. وبالتالي فإن هذه الأبعاد الثلاثة للمجتمع والخطاب؛ الهويات الاجتماعية التي تحيل على أنماط تكوين "الذات/ الفاعل" في الخطاب، والعلاقات الاجتماعية التي تعنى بأسلوب بناء العلاقات بين المشاركين في الخطاب، وأنظمة المعرفة والدلالة التي تحيل على المضمون الفكري والإيديولوجي للممارسة الخطابية والأسلوب الذي تدل به التحققات الخطابية المادية على العالم وما يجري فيه وما يتضمنه من كيانات وأشياء وعلاقات وقيم، تسهم هذه الأبعاد الثلاثة بجوانبها الاجتماعية والخطابية وضمن علاقة جدلية على استمرار الخطاب والمجتمع أو تحولهما وتغيرهما. لذلك من المهم، كما يقول فيركلاف، "أن ننظر نظرة جدلية إلى العلاقة بين الخطاب والبناء الاجتماعي حتى نتجنب مزالق المغالاة في تصور تحكم المجتمع في الخطاب من ناحية، وتصور بناء المجتمع في الخطاب، من ناحية أخرى، فالتصور الأول يجعل الخطاب مجرد انعكاس لحقيقة اجتماعية عميقة، والتصور الأخير يرسم للخطاب صورة مثالية باعتباره مصدرا للمجتمع"⁽¹⁰⁾.

2.2. نظام الخطاب

سبق لنا وأن انتهينا في الفقرات السابقة إلى أن الخطاب يتركب من ثلاثة عناصر أساسية؛ الممارسة الخطابية والممارسة الاجتماعية، ثم النصوص بالمعنى الذي يشمل المكتوب وغيره. كما انتهينا إلى نتيجة أساس وهي أن هناك علاقات جدلية بين السمات المادية والأجناسية للنصوص من جهة، وبين الطرائق التي يتم بها إنتاج النصوص وتوزيعها واستهلاكها من جهة ثانية، وبين الممارسة الاجتماعية بوصفها الإطار الأشمل للممارسة الخطابية من جهة ثالثة⁽¹¹⁾. وإذا كنا قد قلنا كذلك بأن "الأنواع/ الأصناف"، بوصفها طرقا للفعل والتفاعل وتمثيل جوانب من العالم، تحدد جدليا الخطاب والنصوص فيمكننا أن نضيف هنا بأن الطبيعة السيميائية لهاته العناصر لا تتحدد فعلا إلا إذا ربطناها بالجوانب الاجتماعية التي تماثلها.

يقابل النص أو الحدث الخطابي (discursive event)، بوصفه استعمالا فعليا للغة الحدث الاجتماعي، وكل حدث خطابي يخضع للممارسة الخطابية التي تحددها الأنماط والأصناف الخطابية، مثله مثل الحدث الاجتماعي الخاضع للممارسة الاجتماعية التي تحددها الأنماط الاجتماعية. وتسهم الممارسات الخطابية في تكوين الخطاب عامة أو الخطاب الخاص بمجال محدد، كما تسهم الممارسة الاجتماعية في تكوين المجتمع أو النظام المجتمعي، إن على المستوى العالمي، كالنظام العالمي النيو-ليبرالي، أو على المستوى المحلي، كالنظام الاجتماعي للتعليم أو الرعاية الصحية في مجتمع معين وفي وقت محدد. إن الخطاب في هذه المعادلة يقوم مع المجتمع في علاقة تماثلية جدلية، ففي الجانب الاجتماعي لهاته العلاقة كما في الجانب الخطابي مستويات عليا مركبة ومجردة ومستويات دنيا جزئية وملموسة تقوم على علاقة تشكيل وتشكل.

إن الحديث عن المجتمع بوصفه مركبا من كيانات وممارسات وعلاقات وذوات اجتماعية يقتضي بالأصالة الحديث عن النظام الاجتماعي، الجانب المجرد والمتعالي من المجتمع، أي ذلك التنظيم الدقيق الذي يحكم مكونات وكيانات ومؤسسات المجتمع ويحدد بنيتها وعلاقاتها وتفاعلاتها وحدودها وأنماط المواقف المختلفة والممارسات المرتبطة بها، ويعمل على بناء أحياء اجتماعية معينة

بتقسيمها إلى مجالات شتى ترتبط بمختلف أنماط الممارسة والفعل. وبالمثل فإن الحديث عن الخطاب، المقابل السيميائي للمجتمع، يقتضي، كذلك، الحديث بالأصالة عن "نظام الخطاب"⁽¹²⁾ (order of discourse)، بوصفه الجانب المجرد والمتعالي للخطاب بالمعنى المجرد والخطابات بالمعنى الملموس. ويمكن أن نستبق أمر التحديد الدقيق لهذا المفهوم، الذي استعاره فيركلاف من فوكو، فنقول إن نظام الخطاب هو الجانب السيميائي والواجهة الخطابية للنظام الاجتماعي؛ أي لشبكات الممارسات الاجتماعية التي تنشئ/ تشكل الحقول والمؤسسات والتنظيمات الاجتماعية وغيرها.

يتحدد نظام الخطاب بوصفه "بناء اجتماعيا للتنوع السيميائي، وتنظيما اجتماعيا خاصا للعلاقات بين الطرق المختلفة لصنع المعنى والأنواع/ الأصناف والخطابات والأساليب المختلفة"⁽¹³⁾. إنه "نظام اجتماعي ينظر إليه من منظور خطابي محدد، أي من حيث أنماط الممارسة التي ينقسم إليها الحيز الاجتماعي ويتصادف أن تمثل أنماطا للخطاب"⁽¹⁴⁾؛ تنظم اجتماعيا، وبشكل خاص، العلاقات بين الطرق المختلفة لصنع المعنى، أي الخطاب والأنواع والأنماط المختلفة. وتنفي بعض الاحتمالات التي تحددها اللغات وأعراف الممارسة الاجتماعية والخطابية، وتستبعد أخرى لانعدام تلاؤمها مع التنظيم التي تسعى إلى إقامته، وتسيطر على التغييرات والتحويلات اللسانية والأجناسية في مجالات معينة من الحياة الاجتماعية. لذلك يمكن اعتبار الأنظمة الخطابية هي المنظمة للتغيير اللساني والمتحكمة به تحكم النظم الاجتماعية في التحويلات المجتمعية.

يتشكل نظام الخطاب، في بعض المجالات الاجتماعية من مجمل أنماط الممارسات الخطابية والعلاقات بينها والتي تشكل ذلك المجال وتتحكم في إنتاج النصوص والملفوظات المرتبطة به واستهلاكها أو تأويلها. فداخل نظام خطاب المستشفى مثلا، بوصفه مجالا اجتماعيا وخطابيا، نجد ممارسات خطابية جارية كالمقابلات بين الأطباء والمرضى، والمحادثات التقنية لفريق العمل مكتوبة كانت أو شفوية، والمراسلات الإدارية بين الإدارة وطواقم العمل، وخطابات الاستقبال بين المكلفين بالعلاقات العامة والمرتفقين الجدد. وفي كل ممارسة خطابية، أي إنتاج النصوص وتقبلها، توظف أنماط الخطاب بطرائق مخصصة تستجيب لنظام خطاب المستشفى الذي ينتمي إلى نظام خطاب

أعلى هو نظام خطاب الرعاية الصحية الذي ينتهي بدوره إلى نظام خطاب محلي يعكس المنظور الاجتماعي المحلي الذي يمكن أن يتأثر بنظام خطابي كلي عالمي. إن نظام الخطاب بهذا المفهوم بمثابة "الصور الكلية للممارسات الخطابية في مؤسسات معينة أو حتى في مجتمع برمته" (15).

3.2. الخطاب والحس المشترك والإيديولوجيا:

أسس فيركلاف نموذجاً في التحليل النقدي للخطاب على الأدبيات الماركسية فيما يتعلق بالديالكتيك والإيديولوجيا والهيمنة، وخاصة أدبيات الماركسية الغربية التي ارتبطت بشكل أساسي بالتوسير وغرامشي. وقد درس الإيديولوجيا في الخطاب معتمداً على هذين المنظرين بالدرجة الأولى، وهما وإن لم يعتمدا في بحثهما الإيديولوجيا على الخطاب فقد كانت استبصاراتهما فيما يتعلق بأجهزة الدولة الإيديولوجية والمجتمع المدني ملهمة للعديد من المنظرين الذين حاولوا ربط الإيديولوجيا بوصفها آلية لتحقيق الإجماع والرضى ووسيلة تدعيم اجتماعية وموقعا للصراع الطبقي واستجابا للذوات، بالخطاب من مثل ميشيل بيشو (Michel Pecheux) الذي كان الواسطة بين فيركلاف والمنظرين المذكورين. كما حاول الربط بين المقولات الأساس حول الإيديولوجيا وبين الخطاب؛ فبالنسبة لمقولة "الإيديولوجيا ذات وجود مادي في المؤسسات" فقد فتحت الباب للبحث في الممارسات الخطابية باعتبارها أشكالاً مادية للإيديولوجيا. أما المقولة الثانية التي تنص على أن الإيديولوجيا "تستجوب الذوات"؛ أي تطالبها بأن تنزل منزلة محددة تقترحها إيديولوجيا الطبقة المهيمنة، فتؤدي إلى القول بأن إحدى النتائج المهمة للإيديولوجيا في الخطاب تتمثل في تكوين الذوات. وأما المقولة الثالثة والتي تقول بأن "أجهزة الدولة الإيديولوجية تمثل مواقع للصراع الطبقي وغنائم يحاول المشاركون في الصراع الظفر بها"، فتشير إلى أن الصراع حول الخطاب وداخله قضية يركز عليها تحليل الخطاب ذو التوجه الإيديولوجي. (16) وقد انطلق فيركلاف من افتراض أن "الإيديولوجيا هي الآلية الأساسية للحكم من طريق الرضى، وما دام الخطاب يمثل الوسيلة الفضلى للحكم من طريق الرضى، فإن للخطاب أهمية اجتماعية كبرى في هذا الصدد." (17)

يحدد فيركلاف الإيديولوجيا بأنها "تمثيلات لجوانب من العالم تسهم في إقامة العلاقات الاجتماعية المرتبطة بالسلطة والسيطرة والاستغلال وصيانة هذه العلاقات أو تغييرها".⁽¹⁸⁾ وهي "فلسفة مضمرة" في الأنشطة العملية للحياة الاجتماعية، كامنة في الخلف ومسلم بوجودها"⁽¹⁹⁾، تولد في الوقت نفسه صورا تمثيلية للناس في مجتمعاتهم ونظما تحكم هذه المجتمعات. وفي علاقاتها بالخطاب تصير الإيديولوجيا معنى أو دلالة في خدمة السلطة؛ أي تكوينات للمعنى تساهم في إنتاج علاقات الهيمنة وإعادة إنتاجها وتحويلها أو تغييرها، وممارسة تشتغل خلال عمليات إنتاج المعنى واستهلاكه في الحياة اليومية، من أرقى أنماط التفكير والفعل إلى الممارسات العادية المبتذلة، إذ يتم توجيه ذلك المعنى وتلك التكوينات والممارسات إلى الحفاظ على علاقات السلطة القائمة وتدعيمها أو العكس.

تتغلغل الإيديولوجيا في جميع مستويات الحياة الاجتماعية بوصفها الإطار الذي تصدر عنه الذات في جميع ممارساتها بما فيها الممارسة الخطابية وذلك لطبيعتها التكوينية والإنتاجية وللخصيصة الإيديولوجية للأبنية والأحداث، ولا تقتصر في هذه الممارسة على المحتويات أو التمثيلات التي تبنى حول العالم أو من خلاله، بل تشمل كل مستويات الممارسة الخطابية اللغوية وغير اللغوية، بدءا من أصغر وحدة لغوية دالة، وهي الألفاظ ومعانيها، إلى أعلى نظام خطابي تجريدي مروا بالتركيب والدلالة وعمليات التفاعل إنتاجا وتلقيا، والاستعارات، والافتراضات الضمنية، وعمليات الانسجام. ويرى فيركلاف أن "الإيديولوجيا قائمة داخل الأبنية (أي نظم الخطاب) التي تكون حصاد أحداث الماضي وظروف الأحداث الجارية، وداخل الأحداث نفسها أثناء إعادة إنتاجها وتغييرها لصياغة الأبنية"⁽²⁰⁾. لأنها "توجه تراكمي مطبوع راسخ في داخل المعايير والأعراف، وكذلك عمل لا يتوقف في تطبيع مثل هذه التوجهات في الأحداث الخطابية ونقض هذا التطبيع"⁽²¹⁾.

لا يغالي فيركلاف في جعل الإيديولوجيا تشمل جل هذه المستويات النصية والخطابية والتفاعلية، لأن المعاني المرتبطة بالألفاظ تخضع للتفاوض أثناء السعي إلى تقريرها وتثبيتها، وإذا لم يكن ذلك واضحا في بعض الألفاظ التي تبدو شفافة إلى حد بعيد، مثل كلمة أنف، فإنه في ألفاظ

أخرى يكون أوضح، مثل مفاهيم الوطنية والمواطن ومفهوم الإيديولوجيا ذاته وغيرها كثير، إذ تحمل كل هذه الألفاظ تمثيلاً محدداً ووجهة نظر إلى العالم مهما بدت شفافة. أما مستوى التراكم والأبنية اللغوية فتتيح من الاختيارات ما يجعلها طليعة الاستعمال وفق المقاصد الإيديولوجية. كما أن الممارسة التفاعلية تخضع لأعراف وتوافقات تعكس بشكل أو بآخر علاقات السلطة المؤسسة على الإيديولوجيا مهما بدت هذه التفاعلات طبيعية، ولنقل ذلك على الأصناف الخطابية والاستعارات والانسجام، إذ تتضمن كلها افتراضات ومسلمات وخبرات إيديولوجية حول طرق تمثل العالم وتمثيله وعمله وفهمه. أما بخصوص أنظمة الخطاب فأمرها أوضح من أن يخفى؛ لأنها في نهاية الأمر الواجهة السيميائية للعالم الاجتماعي بعلاقاته وحدوده وتقسيماته وتنظيمه وكياناته وأحيازه. لهذا يعتقد فيركلاف أن "استثمار مجموعة متنوعة من السمات والمستويات اللغوية بشكل إيديولوجي أكثر مما يفترض عادة، بما في ذلك جوانب الشكل والأسلوب اللغوي بالإضافة إلى "المحتوى" (22).

تنهض الإيديولوجيا، بوصفها معنى في خدمة السلطة والهيمنة، بوظيفتها في تكريس النظم الاجتماعي السائدة ومن ثم نظم الخطاب التي تسند بها بالاعتماد على الحس المشترك المتعلق بدلالات اللغة وعملها ونظم التفاعل المعتادة في الحياة اليومية وأنماط عمل العالم الاجتماعي والمادي؛ لأن المعنى، وهو جوهر الإيديولوجيا، "يعتمد فيما يبدو على الحس المشترك، إذ يتضح أن "الحس المشترك" في هذه الحالة ضرب من "خفة اليد" الإيديولوجية" (23). إن الإيديولوجيا والحس المشترك غير منفصلين في الحقيقة إلا في كون الإيديولوجيا حساً مشتركاً واضح الارتباط بمصالح فئة محددة، وكون الحس المشترك إيديولوجياً طبيعياً فقدت تلك الارتباطات وصارت تقدم نفسها، إن أدركت فعلاً على أنها إيديولوجيا، على أنها حس مشترك طبيعي، وهنا يتحقق خطر الإيديولوجيا، إذ تصير خفية مستعصية على المساءلة والمناقشة.

تحقق الإيديولوجيا أقصى درجات فاعليتها عندما تعمل خفية؛ تعمل كحس مشترك طبيعي يصعب إدراك علاقاته بضروب التفاوت في السلطة والمنزلة الاجتماعية. إذ تضيف حينها الصفة الطبيعية على السلوكات المعتادة على حساب الفرد وتُطَبِّعُها من خلال رفعها إلى منزلة المسلم به

الطبيعي الذي لا يقبل الشك. وهذه الاستراتيجية ذاتها من ثمار الإيديولوجية نفسها وأداة من أدوات السلطة؛ حيث تعمل الإيديولوجيا على إخفاء نفسها حتى تظهر بأنها فقدت ظاهريا كيائها الإيديولوجي، وصارت موقفا ومنظورا مجتمعا كليا عوض موقف فئة بعينها، واستحالت تلقائية. و"كلما ازداد الطابع التلقائي للعمل الذي يؤديه افتراض إيديولوجي معين في بناء تفسيرات ذوات معان مترابطة، قل احتمال إدراكنا الواعي به، واكتسبت مكانته الإيديولوجية ثباتا وصلابة أكبر، وهو ما يعني أيضا زيادة فعالية إعادة إنتاجه من خلال الارتكان إليه في الخطاب [وفي غيره]"⁽²⁴⁾.

ليس بالضرورة أن تصرح النصوص أو الخطابات بالإيديولوجيات حتى نقول عنها إنها إيديولوجية، فهذه الصفة ملازمة لكل ممارسة خطابية ولكل النصوص، ف"الأعراف التي نهل منها باستمرار في الخطاب تجسد افتراضات إيديولوجية ينتهي بها الأمر إلى أن تعتبر من "المنطق السليم" وحسب، وبذلك تسهم في الحفاظ على علاقات السلطة القائمة"⁽²⁵⁾؛ وهذه الافتراضات، بوصفها أساليب فعالة في التلاعب بالناس يصعب الطعن فيها في حالات كثيرة، لأنها كامنة في خلفية الخطاب/ النص تدفع منتج النص إلى تقديم صورة للعالم وفق أسلوب محدد تفرضه الأنماط الخطابية التي نهل منها، وتدفع متقبل الخطاب/ النص إلى تفسيره بالأسلوب ذاته تقريبا باعتماد المفاتيح الإيديولوجية ذاتها، معيدا إنتاج النص/ الخطاب وإيديولوجياته في غمار ذلك، وهذا من مظاهر تسرب الإيديولوجيا إلى النصوص/ الخطابات والحس المشترك الذي يبقى إيديولوجيا في جوهره. و"من المفارقات أن التفرغ الظاهري للخطاب من مضمونه الإيديولوجي يعتبر في الحقيقة نتيجة إيديولوجية جوهرية: أي إن الإيديولوجيا تعمل من خلال إخفاء طبيعتها، والتظاهر بأنها غير ما تبدو عليه"⁽²⁶⁾.

لنستحضر الآن استمرار هذه الحالة من إنتاج النصوص وتفسيرها باعتماد مفاتيح الإيديولوجيا والحس المشترك لأزمة طويلة ومتعاقبة، ولننظر إلى علاقتها بالذوات والسعي الحثيث والمطرد لهذا الجهد وهاته العمليات لتشكيل الذوات ووضعها في مواقع شتى يراد لها أن تشغلها، وهذا هو الموضوع الأساس للإيديولوجيا. يقترح علينا فيركلاف تصورا مستقى من غرامشي حول كيفية

تشكل الذوات من خلال الإيديولوجيا وعبر الخطاب، ويرى هذا التصور أن الذوات الاجتماعية تتشكل من التجميع الخاص لمواقع الذوات؛ بمعنى أن الذات لم تعد تتحدد بوحدتها وتماسكها وشغلها موقعا واحدا، بل على العكس من ذلك تتحدد الذات بتركيبها وتعقدها وانتشارها، بتعبير فوكو، وشغلها لمواقع عديدة. ويعني ذلك في علاقتها بالإيديولوجيا أن الذات لم تعد تشكيلة موحدة ناتجة عن إيديولوجيا واحدة مهيمنة؛ إنها ملتقى إيديولوجيات متعددة متصارعة تفرض على الذات شغل مواقع مختلفة "تعبّر عن مواقع الذوات وأنماط المواقف الخاصة بأنماط الخطاب المهيمنة مما يقبل التطبيع، و[هذه المواقع والمواقف] أبعد ما تكون عن الوجود قبل الخطاب وأبعد ما تكون استقلالاً عنه، على نحو ما نفترض في العادة استناداً إلى المنطق السليم، بل إنها تعتبر من زاوية معينة من نواتج الخطاب، فكل نمط من أنماط الخطاب وكل نظام من نظم الخطاب له قائمة خاصة به من أنماط المواقف، ومن ثم فإن لدينا قوائم مختلفة تتسم بإيديولوجيات متضادة"⁽²⁷⁾. تؤدي دوراً في التكوين الإيديولوجي للذوات.

تحقق الأيديولوجيا، كما تقدم، القائمة داخل الممارسات الخطابية وحولها أقصى تأثير لها في تشكيل الذوات، الغاية النهائية للإيديولوجيا، عندما "تُطَبَّعُ" (naturalised) وتصطبغ بصبغة الحس المشترك. غير أن هذه الخصيصة لا تجعل الأبنية الإيديولوجية وبالتالي أنظمة الخطاب والافتراضات التي تدعمها ثابتة راسخة للإيديولوجيا، وذلك لأن هذه الصورة المثالية غير واقعية في غالب الأحيان، لأنها تظهر الذات بمظهر العاجز الذي فقد كل فاعلية ومبادرة وصار سلبياً ينفعل بآثار الإيديولوجيا وأبنيتها الخطابية والاجتماعية. والصحيح أن هذه العملية، السعي إلى السيطرة والتحكم الإيديولوجي عبر الممارسات الخطابية وغيرها، تنهض على الصراع والتنازع والتفاوض بوصفها أبعاداً للممارسة الخطابية تسعى إلى إعادة تشكيل الممارسات الخطابية والإيديولوجيا القائمة داخلها وحولها في سياق إعادة تعريف علاقات السلطة وهيكلتها أو تحويلها.

إن التطبيع؛ تطبيع التمثيلات والمعاني والممارسات والعلاقات والهويات والكيانات، الذي يُنَبِّتُ الإيديولوجيا محولاً إياها إلى حس مشترك، في ظل واقع تتنازع الإيديولوجيات وأنظمة الخطاب التي

تسندها، خاضع هو الآخر لميزان القوى في الصراع الاجتماعي حيث تسعى كل مجموعة بدأب حثيث إلى فرض صورتها من الحس المشترك يقبلها الجميع وترفع إلى مستوى الصورة الاجتماعية الطبيعية التي تحكم أفعال وتفاعلات الذوات الاجتماعية. وقد يتخذ هذه التنازع وهذا الصراع، كما هو في غالب الأحيان، شكلا خطابيا ماثلا في الصراع بين أنماط خطابية ذات تنوع إيديولوجي ناشئ من التباين في الخبرات والاهتمامات والمواقع بين المجموعات المتنازعة في علاقات السلطة. بحيث إذا "هيمن نمط من أنماط الخطاب على مؤسسة ما إلى الحد الذي يتيح القمع أو الاحتواء الكامل تقريبا للأنماط الخاضعة للهيمنة، فلن يراه أحد بعدها نمطا تعسفيا، بل سوف ينظر إليه باعتباره نمطا طبيعيا ومشروعا لأنه أسلوب التصرف المتبع وحسب"⁽²⁸⁾. إذ إن كل قوة سياسية أو اجتماعية أو منظومة سلطوية إنما تسعى إلى أن يفوز نمط خطابها بالقبول بوصفه النمط المناسب إيديولوجيا لتمثيل وتكوين العالم الاجتماعي وإعادة إنتاجه ويتفق مع الحس المشترك لتأسيس الاعتقاد بشرعيتها وتكريسها. وما دام الخطاب هو الوعاء المفضل للإيديولوجيا، بوصفه ممارسة إيديولوجية تشكل دلالات العالم، وتطبعها، وتحافظ عليها أو تحولها، ومن ثم للسيطرة من خلال الرضى، فربما كان لنا أن نتوقع تغيرا كميًا في دور الخطاب في تحقيق السيطرة الاجتماعية"⁽²⁹⁾.

4.2. الخطاب والسلطة والهيمنة:

كان شائعا في التحديدات التقليدية للسلطة أنها قوة مادية تحوزها جهة أو فرد وتمارس من خلالها سيطرتها على أفراد آخرين أو قطاعات اجتماعية محددة. والسلطة بهذا المفهوم تحمل معنى سلبيا وتتسم بالمادية والتعسفية والقابلية للتركيز في يد فرد أو جماعة أو جهاز. وكانت غالبا ما تربط بالمظهر المادي والإيديولوجي للدولة وأجهزتها القمعية والإيديولوجية في الحيز السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي. لكن في المقابل نجد تحديدا لفوكو ينظر للسلطة على أنها محايدة وملزمة لجميع الأحداث والممارسات والأنماط والأبنية الاجتماعية، وليس بالضرورة أن تتجلى فيما هو مادي أو تعمل بأسلوب سلبى تعسفى للإخضاع بالقوة والإكراه. إنها على العكس من ذلك إنها تشرك معها الأفراد بإعادة تشكيلهم وتجهيزهم حتى يصبحوا ملائمين لتلبية حاجياتها، وهي بهذا المعنى "منتجة" تعمل بصورة جماعية وتراكمية بتداخل مؤسسات اجتماعية مختلفة (الأسرة، المدرسة، الدين، القضاء،

الإعلام، الإدارة) لضمان استقرار الطبقة المهيمنة التي يرتبط أفرادها بروابط المصلحة المباشرة وغير المباشرة. وتتسم السلطة بقدرتها على بنية مجال معين وهيكلته والحفاظ على تلك الهيكلية من خلال تحديد أدوار ومهام المنتمين إليه، وتمييز السلوكات والممارسات "الصحيحة" من "الخاطئة" المرتبطة به، وتعريفه بما يلائم مصالح المتحكمين به والمنتفعين منه، وتقسيمه إلى أجزاء والحفاظ على استقلالية كل جزء عن غيره، وفرض تنظيم معين لهذه الأجزاء في علاقاتها المؤسسة للتراتبية ومن ثم للخضوع والسيطرة.

تميل السلطة، في العالم المعاصر، بمعناها المادي السلبي التعسفي والسافر إلى الاضمحلال لتحل محلها أشكال معقدة من السلطة تقوم على إخفاء الجانب السافر للسلطة والسيطرة بادعاء التنازل عنها لصالح سلطة وهمية مشتركة، كما نجد في الكثير من مجالات العمل التي تحولت من تركيز السلطة في شخص واحد إلى توزيعها لصالح أفراد عديدين/ الفريق. غير أن الحقيقة عكس ذلك، فغالبا ما يعمد أصحاب السلطة الحقيقيون إلى تجميل سلطتهم وحسب باعتماد استراتيجيات جديدة تستجيب للسعي المتزايد من لدن أصحاب السلطة إلى تقليل فاعلية الأفراد عبر إخضاعهم بطرق لا ينكرونها صراحة؛ طرق يظهرون من خلالها فاعلين أحرارا وإن كانوا في الحقيقة خاضعين للأبنية التي ترصدها السلطة لتنظيم مجال اشتغالها لصالح إيديولوجية محددة. "إن التخلص الظاهر من العلامات السافرة على وجود السلطة وعدم التناظر في التمتع بها، من باب التجميل في الحقيقة وحسب، وإن أصحاب السلطة و"حراس المداخل" بشق أنواعهم يقتصر عملهم على استبدال آليات سيطرة خفية بالآليات السافرة وفي هذا الرأي بعض الصدق، ولكنه يقدم نصف الحقيقة فقط. فأسلوب إضفاء الديمقراطية المذكور قد يكون من باب التجميل وحسب، ولكنه يمكن أن يكون حقيقيا، وأن يكون معناه مثار صراع"⁽³⁰⁾. وبالتالي فكلما كانت العلامات السافرة ضمن علاقات السلطة أقل بروزا كلما تقوت العلامات الخفية الدالة على عدم التناظر في السلطة واشتدت وصعب إدراكها لدقتها لا لاختفائها.

تعد العديد من الممارسات، بما فيها الممارسات الخطابية، التي ينهل منها الناس دون تفكير نتيجة ومظهرًا من مظاهر السلطة، إذ تجسد تلك الممارسات وتتضمن افتراضات إيديولوجية تخدم السلطة بوجه أو بآخر وتضفي المشروعية على علاقاتها القائمة رغم ما يبدو عليها من شمولية وطبيعية، فكما سبق لا تخلو أية افتراضات من بذور الموقفية والمصلحة للطبقة أو الكتلة المهيمنة مهما اكتسبت صورة طبيعية. ووفقا لهذه النتيجة، ومن منطلق أن الخطاب يعمل بأسلوب إيديولوجي، من الممكن الادعاء بأن الممارسات اللغوية الخطابية ترتبط ارتباطا وثيقا بالسلطة وأشكال الصراع حولها، وهو ارتباط يعود إلى خصائصها الإيديولوجية بوصفها أولا المجال الأولي للإيديولوجيا، ولأنها، ثانيا، تمثل موقع الصراعات على السلطة.

يحدد فيركلاف نوعين من علاقة السلطة بالخطاب؛ نوع يعتبر فيه السلطة ماثلة داخل الخطاب، ويتناول فيه الخطاب بوصفه مكانا تمارس فيه علاقات السلطة وتتجسد فيه واقعا وفعليا. وتتعلق السلطة في هذا النوع بـ"قيام المشاركين في الخطاب من ذوي السلطة بالتحكم في أقوال المشاركين من غير ذوي السلطة وفرض القيود عليها [...] والخطاب وفق هذا التصور بمثابة الحلقة التي تجري فيها ضروب الصراع على السلطة"⁽³¹⁾. ويميز فيركلاف بين ثلاثة أنماط من القيود التي تفرضها السلطة على الخطاب وعلى المشاركين فيه بالمثل، وتشمل مستويات الخطاب الثلاثة التي تحيل على وظائفه الفكرية والعلائقية والذاتية؛ القيود على المضمون، أي على المعارف والمعتقدات وبالتالي على إعطاء الدلالة لما يقال، ثم القيود على العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين الناس في الخطاب، ثم على الذوات والهويات الاجتماعية، أي مواقع الذوات التي يستطيع الناس احتلالها⁽³²⁾. إن السلطة وفق هذا المنظور هي التي تتحكم في طبيعة المقول ومنها وحدها يستمد دلالاته ومعناه، كما تتحكم في العلاقات التي تعرف المشاركين في الخطاب بإخضاعها للفوارق في السلطة، ومن ثم تصنيف المشاركين في الخطاب وإحلالهم مواقع يشغلونها من اقتراحها. وبالتالي فإن السلطة في الخطاب تتضمن القدرة على تكوين الأرضية المشتركة ومضمونها وافتراضاتها التي تدعم التمثيلات الفكرية والإيديولوجية وطبيعة العلاقات ومواقع الذوات التي من المفروض أن يشغلها المتفاعلون فيه.

يتحدد النوع الثاني من علاقة السلطة بالخطاب فيما سماه فيركلاف بـ "السلطة من وراء الخطاب" وينطلق هذا النوع من فكرة "أن النظام الاجتماعي للخطاب يصبح كيانا كلياً متماسكا بفضل التأثير الخفي للسلطة"⁽³³⁾، وهو على عكس النمط الأول، ليس وسيلة للصراع على السلطة بل يمثل الغاية من الصراع على السلطة. وعندما نتحدث عن التأثيرات الخفية للسلطة وغاية الصراع على السلطة في علاقة كل ذلك بالخطاب فإن التفكير ينصرف إلى تأثيرات أنظمة وأنماط الخطاب والقيود على إتاحة المشاركة في الخطاب التي يقوم عليها حراس المدخل، فالسيطرة على نظم الخطاب ومن ثم على الأنماط الخطابية السائدة آلية جبارة للحفاظ على السلطة عبر فرض نمط/ نظام خطابي بجميع خصائصه وشبكته العلائقية على جميع المشاركين في الخطاب على المدى البعيد. كما أن التحكم في شروط المشاركة في الخطاب عبر إجراءات رسمية تسنها المؤسسات الإيديولوجية النافذة في المجتمع، كالإعلام، من خلال تحديد من يتحدث، وكيف، ومتى، وماذا يقول؟ فضلا عن مطالبة المشاركين المحتملين في الخطاب بالاستجابة لشروط معينة تتجاوز أحيانا شروط المشاركة في ضروب أخرى من الخطاب، تتسم بالتوزيع غير المتكافئ. وتعد هاتين الآليتين مضافا إليها القيود على المستويات المذكورة في الخطاب أبرز مظاهر السلطة في وعلى الخطاب تمكن الكتلة المهيمنة من سلطة إيديولوجية تتيح لها تمثيل ما تفعله بوصفه ممارسة عامة وطبيعية تستكمل بها سلطتها الاقتصادية والسياسية لتكتمل.

تتحدد الهيمنة (hegemony) بدلالاتها على الزعامة أو القيادة وعلى السيطرة المطلقة على جميع المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والإيديولوجية في مجتمع ما. "إنها السيطرة على المجتمع ككل لإحدى الطبقات الأساسية المحددة اقتصاديا في التحالف (ككتلة) مع القوى الاجتماعية الأخرى، غير أنها لا تتحقق أبدا إلا بصورة جزئية ومؤقتة، بوصفها "توازنا غير مستقر". تتعلق الهيمنة ببناء التحالفات، والتكامل مع الطبقات التابعة والاندماج معها إما من خلال تقديم بعض التنازلات أو بوسائل إيديولوجية لكسب موافقتها ورضاها، لا السيطرة عليها فحسب"⁽³⁴⁾. إنها أسلوب للسيطرة يقوم على التحالفات، واحتواء الجماعات الثانوية، وتوليد الرضا، لذلك تعد محور صراع مستمر حول نقاط عدم الاستقرار بين الطبقات والكتل، لبناء أو دعم أو تقسيم التحالفات وعلاقات

الهيمنة/التبعية، والتي تتخذ أشكالاً اقتصادية وسياسية وأيديولوجية. وهي لذلك "يتزامن فيها" منطق الاختلاف" و"منطق المساواة". وهما نزعتان تعمل الأولى منهما على توليد الاختلافات بين الموجودات والكيانات ومجموعات الناس [...] ونشرها، وتعمل الثانية على محو الاختلافات أو "تقويضها" عن طريق تمثيل الموجودات والكيانات والمجموعات [...] بوصفها مساوية لبعضها البعض⁽³⁵⁾. ويدور الصراع من أجل الهيمنة على جهة واسعة تشمل مؤسسات المجتمع المدني (التعليم، والنقابات، والأسرة) كآلية استراتيجية أولى للهيمنة على المجتمع، وهو التصور الذي اعتمده غرامشي لتحليل الرأسمالية الغربية والاستراتيجيات الثورية في أوروبا الغربية.

يحوز الخطاب دوراً بارزاً في التمكين لفئة أو مجموعة على الهيمنة المطلقة في المجتمع، إذ تعتمد هذه الفئة أو المجموعة إلى "بنية الممارسات الخطابية بطرائق محددة داخل أنظمة الخطاب بحيث تصبح "مطبوعة" وتحظى بالقبول، على نطاق واسع، باعتبارها في ذاتها شكلاً من أشكال الهيمنة (الثقافية بصفة خاصة)"⁽³⁶⁾. ويكون ذلك، كما أشرنا سابقاً، باحتواء أنظمة الخطاب المجتمعية وإخضاعها لنظام خطابي واحد ترتبط به بقية الأنظمة الخطابية الفرعية بعلاقة تبعية نتيجة لاستعمارها من لدنه. فإذا أخذنا مثلاً النظام الخطابي للنيلو-ليبرالية بوصفه نظاماً خطابياً يدعي الشمولية فإننا نجد قد أقصى، بطريقة معينة، أنظمة خطابية سابقة اشتراكية أو ليبرالية، على الأقل، في مقدمة النظم الاجتماعية والاقتصادية. ولكي يحل محلها، شرع في إخضاع أنظمة الخطاب الفرعية: التعليم والصحة والحماية الاجتماعية وغيرها، معياداً تعريفياً وتنظيمياً. وبهذا لا تنحصر ماهية الخطاب في كونه الوسيلة التي تترجم أنواع الصراع أو نظم الهيمنة بل هو السلطة التي يروم الظفر بها من يسعى إلى الهيمنة.

تشغل الافتراضات الإيديولوجية التي تتأسس عليها كل هيمنة لا تعتمد السلطة القسرية مكانة مهمة ضمن سلسلة الهيمنة وإعادة إنتاج الوضع الاجتماعي القائم من خلال النهل من تلك الافتراضات ذاتها بطريقة محافظة، وهنا ينبغي ألا نفهم هذه الافتراضات على أنها تمثيلية فقط بل بمفهومها العام الذي يشير إلى العلاقات والممارسات ومواقع الدوات في علاقتها بالأنماط والأبنية والممارسات

الاجتماعية وأنظمة وأنماط الخطاب التي تسندها. تتضافر كل هذه المستويات من الافتراضات لتحافظ على علاقات الهيمنة القائمة وتكسيها المشروعية، وغالبا ما تمر عبر الخطاب الذي تنتجه المؤسسات الإيديولوجية التي تحدد بشكل أو بآخر الممارسات والقيم والتمثيلات التي تشكل موارد تجاربنا وبالتالي مصدر كل تفاعلاتنا الخطابية والاجتماعية إنتاجا وتلقيا وفعلا وانفعالا. غير أنه لا ينبغي أن نضمم الهيمنة بهذا الشكل الحتمي الذي يقصي على الفاعلية ويلجئ إلى المحافظة بدل التحويل والتغيير. بل على العكس يمكن أن نتوقع تحولا في علاقات السلطة وبالتالي في موازين الهيمنة بالتحول في أنظمة الخطاب، أو نتوقع استمرارا وثباتا واستقرارا لهاته العلاقات وبالتالي استمرارا للهيمنة المطلقة بالمحافظة على أنظمة الخطاب التقليدية رغم أن "هذا ليس بالضرورة واقع الحال، فحتى إذا ظلت علاقات السلطة ثابتة نسبيا فإنها تحتاج إلى تجديد نفسها في عالم دائم التغير، وهكذا فإن التحولات في أنظمة الخطاب قد لا تكون لازمة، ولو من أجل حفاظ مجموعة اجتماعية سائدة على موقعها"⁽³⁷⁾. وهكذا فقد تكون إعادة إنتاج الهيمنة ذات طابع محافظ أساسا بحيث تحافظ على الاستمرار، أو ذات طابع تحويلي أساسا بحيث تحدث تغييرات معينة"⁽³⁸⁾.

3. الاستعارة الإيديولوجية والاستعمار الخطابي:

1.3. الاستعمار الخطابي والإيديولوجيا:

يمكن تصور الحياة الاجتماعية وتحليلها بوصفها تفاعلا بين ثلاثة مستويات؛ البنيات الاجتماعية، والممارسات الاجتماعية والأحداث الاجتماعية، وينظر إلى العلاقة بين البنيات والأحداث الاجتماعية على أنها غير مباشرة إذ تتوسط هذه العلاقة الممارسات الاجتماعية بوصفها طرقا مستقرة ودائمة نسبيا للفعل والتمثيل والوجود رغم أنها قابلة للتغيير. تشكل الممارسات الأحداث لكنها لا تحددتها، ويمكن أن يؤدي التحول في طبيعة الأحداث من خلال التراكم إلى تغيير في الممارسات الذي يمكن أن يؤدي بدوره من خلال التراكم إلى تحولات في الأبنية الاجتماعية. ويمكن النظر في المقابل إلى هذه المستويات الثلاثة من العالم الاجتماعي على أن لها طابعا خطابيا أو سيميائيا جزئيا. فالأحداث الاجتماعية في جانبها الخطابي السيميائي نصوص (محادثة مكتوبة أو شفوية)، أما الممارسات

الاجتماعية فتتحدد في جانبها الخطابي في "الأنواع" بوصفها طرق تمثيل وتفاعل، و"الخطابات" وهي طرق تمثيل جوانب من العالم يمكن تحديدها بشكل عام بأنها مواقف أو وجهات نظر مجموعات مختلفة من الفاعلين الاجتماعيين، و"الأساليب" وهي طرق وجود وتعبير عن الهويات الاجتماعية في جانبها السيميائي. وتتكون المجالات المؤسسية والتنظيمات الاجتماعية من ممارسات اجتماعية مرتبطة ببعضها البعض في شكل شبكات يُكوّن بعدها السيميائي "نظام الخطاب" بوصفه تشكيلا محددا للأنواع والخطابات والأساليب الخاصة بحقل اجتماعي أو مؤسسي محدد. فإذا أخذنا مثلا مجال السياسة نجده يتكون من شبكة من الممارسات الاجتماعية المرتبطة بالأحزاب السياسية، وعمل البرلمان، والانتخابات والفضاء العام، وهذه الممارسات لها جانب خطابي سيميائي يتحدد في الخطاب السياسي الذي يصدر عن تمثيل معين لجوانب من العالم (الخطاب السياسي الليبرالي، الخطاب السياسي الاشتراكي، الخطابي السياسي المحافظ..). ثم الأنواع المختلفة بوصفها أنماطا للفعل والتفاعل (النقاش البرلماني، والمقابلات، والخطب السياسية، والمناظرات السياسية) والأساليب المتنوعة بوصفها طرق تعبير ووجود (أسلوب القادة السياسيين مثلا).

يمكن القول إن جل الحقول الاجتماعية تتميز بممارسات وأبنية وأحداث ترتبط بها وتحددها وتعرفها وتضع حدودا بين المقبول والصواب والمرفوض والخطأ داخلها لتحفظ به كيائها وتتميز عن باقي الحقول الأخرى. وبالمثل يتميز كل حقل اجتماعي بنظام خطابي وممارسات وأنماط وأساليب خطابية يتحدد بها ذلك الحقل سيميائيا من خلال تحديد التمثيلات الخطابية التي تلائمه وأشكال الفعل والتفاعل التي تحدده بوصفه مجالا مستقلا. والمحصلة النهائية أن العالم الاجتماعي مليء بأنظمة خطابية تُعرّف الحقول التي تحددها، غير أن العلاقة بين هذه الأنظمة لا تتميز دائما بالاستقلال والحيادية، بل إنها غالبا ما تقوم على الصراع ومحاولة الاحتواء خاصة إذا كان للحقل الاجتماعي أكثر من نظام خطابي واحد مثل الحقل السياسي الذي تختلف أنظمتها الخطابية باختلاف المذاهب السياسية نفسها. وإذا كان هذا هو حال أنظمة الخطاب في حقل اجتماعي واحد فإن أنظمة الخطاب في الحقول المختلفة غالبا ما تسعى إلى فرض نظامها الذي يُعرّف حقلها سيميائيا

على حقول خطابية، وبالتالي إخضاعه لمنطقها فيما يتعلق بوظائف الفاعلين فيه وأدوارهم وتمثيلاتهم، وتنظيمه وحدوده وتمثيلاته.

نسي العملية السابقة بالاستعمار الخطابي أو الاستعارة الإيديولوجية وتقوم على أن الخطابات التي نشأت في مجال أو مؤسسة اجتماعية محددة، بل وحتى في سياق اجتماعي تاريخي معين، يمكن إعادة تسييقها (recontextualized) في مجالات أخرى أو سياقات اجتماعية تاريخية أخرى. و"إعادة التسييق هذه لها طابع خاص؛ إذ يمكن النظر إليها على أنها "استعمار" مجال أو مؤسسة لمجال أو مؤسسة أخرى، أو على أنها "استيلاء" للخطاب المستعمر على خطابات المجالات المستعمرة وإقصاؤها وإعادة تعريفها وفق منطلقاته وأهدافه"⁽³⁹⁾. وانطلاقاً من ذلك قد يتم تفعيل تلك الخطابات المسيقة في السياق/ الحقل الجديد في ظل ظروف معينة ووضعها موضع التنفيذ من خلال عملية دياكتيكية تتكون من ثلاثة جوانب؛ فقد يتم سنّها كطرق جديدة للتفاعل والتصرف، وقد يتم غرسها كطرق جديدة للوجود والتعبير عن الهويات الفردية والجماعية، أو كطرق جديدة لتمثيل الحقل الاجتماعي المستعمر وتنظيمه. و"قد تتخذ هذه المستويات الثلاثة من إعادة التسييق صوراً سيميائية تقوم على تمثيل خطاب محدد بوصفه جملة من الإجراءات التي تعين أشكال التفاعل الجديدة بين المتدخلين في الحقل الاجتماعي الذي يمثله الخطاب سيميائياً"⁽⁴⁰⁾. أو على غرسه بوصفه نظاماً من الهويات التي تحدد بشكل تلقائي طرق الوجود والكيونة داخل الحقل المستعمر. وأخيراً على فرض نموذج من التمثيلات الإيديولوجية التي تحدد بشكل عام الحقل المستعمر وفق منطلقات الحقل الذي استعمره.

يبدأ استعمار حقل اجتماعي لآخر، وفق المنظور الذي اعتمدناه، بالتوازي بين الجانبين الاجتماعي والسيميائي من خلال التفاعل بين الأبنية والأحداث الاجتماعية والأنظمة والأحداث الخطابية ولكن بتوسط الممارسات الاجتماعية والخطابية. وينطلق هذا التصور من أن التغيير في الحقل الاجتماعي يسبقه التحول في نظام الخطاب الذي يعرفه سيميائياً، وذلك لأن التمثيلات الإيديولوجية التي تُعرّف الحقل وتتحكم في الأحداث والممارسات والأبنية التي تشكله تتكون في الخطاب

وعبره. لذلك فاستعمار أي حقل اجتماعي يسبقه استعمار الخطاب المرتبط به عبر جعل خطاب الحقل المراد استعمارَه يفتح على الحقل المستعمر بطريقة يتحول معها الأول إلى خطاب مهجن (hybrid discourse) يستعير من مستعمره طريقة تمثيله وتنظيمه وتعريفه لمجاله وممارساته وحدوده ومنطلقاته، لأن هذا التهجين منطلق لتحويل نظام الخطاب الذي يسنده وتغيير هذا النظام تحويل للحقل الذي يمثله سيميائيا وبالتالي إحداث تغيير اجتماعي على مستوى البنية الاجتماعية. إن هذا الاستعمار والاستعارة الإيديولوجية الخطابية إنما يعكس في نهاية المطاف الصراع بين الإيديولوجيات من جهة والرغبة في مراكمة السلطة المادية والرمزية للاستفادة من خيراتها.

إن الواقع الذي نعيشه يعج بخطابات ونصوص وأنماط وأساليب كلها محكومة بأنظمة خطابية تحدد بشكل أو بآخر الجوانب التنظيمية المرتبطة بها، وكل تحول يمس المستويات الدنيا والمتوسطة السابقة من هذا التنظيم السيميائي ينعكس بشكل أو بآخر على نظم الخطاب المتسمة بالتجرد والتعالي بطريقة جدلية تعمل على التغيير مع مرور الوقت رغم الثبات النسبي لهذا المستويات وتلك. ويشهد هذا الواقع نفسه أن الخطابات لم تعد صافية نقية، إن صح التعبير، بحيث يكون لكل خطاب منطلقاته وأهدافه وتمثيلاته وإجراءاته الخاصة في تمثيل وتحديد المجال أو الحقل الذي يعرفه، بل صرنا نلاحظ خطابات مهجنة تستعير وتستعمر من غيرها بشكل يعمل على تثويرها وتحويلها. والملاحظ أن الخطاب الذي يكاد يستغرق جميع الخطابات ويستعمرها هو الخطاب الاستهلاكي أو خطاب السوق المؤسس على المبادئ الرأسمالية والليبرالية والنيو-ليبرالية. فقد أضحي هذا الخطاب هو المتربع على عرش كل أشكال الخطاب يدعمه الخطاب الإعلامي والترويجي والعلمي وغيرها، وصار يطمح إلى استعمار جميع الخطابات وإعادة تسييق نفسه داخل حقولها من خلال إعادة تعريفها وتحديد تفاعلات المتفاعلين داخلها ورسم حدودها وتحديد قيمها وتمثالاتها وفق قيمه ومنطلقاته وإجراءاته هو، وهو ما نلاحظه في حقول التعليم والصحة والحماية الاجتماعية وكل مجال مجالات الخدمات الاجتماعية والإعلام وكل الحقول الاجتماعية تقريبا.

2.3. الاستعارة الإيديولوجية واستعمار خطاب التعليم:

ظهرت أنظمة الاقتصادات الليبرالية والنيو-ليبرالية، ابتداءً، بوصفها جملة من الأفكار والخطابات وتحولت في ظل ظروف وشروط معينة إلى حقائق اقتصادية مادية وخطابية يسند، بطريقة جدلية، جانبها المادي القائم على إنتاج السلع وتسويقها واستهلاكها جانب خطابي مؤسس على العمل على بناء تمثيلات وطرق فعل وتفاعل ووجود تعمل بالتوازي مع العمليات الاقتصادية السابقة على التمكين لهذا النظام في العالم الاجتماعي والتطبيع مع ممارساته العملية والخطابية برفعه إلى مستوى الحقائق الاجتماعية المسلمة التي لا تخضع للمساءلة؛ أي إلى إيديولوجيا طبيعية مقطوعة الصلة ظاهرياً بمصالح الفئة المهيمنة التي تسعى إلى فرض هذا النظام. ويتم وصف الثقافة المعاصرة الموجهة بالعمولة والمحددة باقتصاد السوق الليبرالي والنيو-ليبرالي بأنها ثقافة ترويجية (promotional) واستهلاكية (consumer) قائمة على إعادة تعريف الحياة الاجتماعية على أساس قيم السوق والتي تحولت نسبياً داخل الاقتصاد من التركيز على الإنتاج إلى الاستهلاك. و"يمكن فهم مفهوم الثقافة الترويجية (promotional culture) من وجهة نظر خطابية على أنها تعميم الترويج بوصفه وظيفة تواصلية- الخطاب كوسيلة "لبيع" السلع والخدمات أو النظم أو الأفكار أو الأشخاص- عبر أنظمة الخطاب"⁽⁴¹⁾.

تقوم الثقافة الترويجية والاستهلاكية والتسليع عامة بإخضاع بعض المجالات والمؤسسات الاجتماعية التي لا تعمل على إنتاج السلع بالمعنى المادي والاقتصادي الضيق للبضائع وتنظيمها وتصويرها في إطار إنتاج السلع وتسويقها واستهلاكها. وتؤثر ظاهرة التسليع وانتشار النزعة الاستهلاكية وثقافة الترويج وخصائص السوق الملازمة لثقافة الأنظمة الليبرالية والنيو-ليبرالية على نظم الخطاب بشكل كبير، وهي تتراوح ما بين "تغلغل ظاهرة إعادة بناء نظم الخطاب المؤسسية تحت تأثير الحركة الاستعمارية لخطاب الإعلان والتسويق والإدارة، وبين "إعادة الوصف" التي نشهدها في كل مكان للجماهير والعملاء وطلاب العلم وهلم جرا باعتبارهم "مستهلكين" أو "زبائن"⁽⁴²⁾. ومن حيث نظم الخطاب "فلنا أن نتصور أن التسليع استعمار لنظم الخطاب المؤسسية، وللنظام الخطابي المجتمعي للخطاب بصفة أعم، من جانب أنماط خطابية مرتبطة بإنتاج السلع"⁽⁴³⁾. لذلك لم يعد من المستغرب

أن نرى بعض المجالات الاجتماعية والمؤسسية مثل النظم التعليمية والصحية تستعير أو تستعمر من لدن خطاب السوق فنجدها هي الأخرى تعمل بإنتاج وتسويق وبيع سلعة ثقافية أو تعليمية أو طبية إلى "زبائنهم" أو "مستهلكهم".

إذا صح لنا أن نعتد مفهوم الاستعارة التصويرية بوصفها "تفكيراً في الشيء (أ) كما لو كان شيئاً آخر (ب)" ⁽⁴⁴⁾ لتعريف ما يقع للحقل التعليمي من استعمار نظم السوق؛ أي لتعريف تجربة التعليم من خلال تجربة السوق، فسنقول إن الاستعارة كما الاستعمار "نادراً ما يكونان محايدين؛ فإنشاء شيء بمفردات شيء آخر تنتج عنه وجهة نظر معينة حول "الشيء" موضوع التساؤل، وينطوي غالباً على اتجاهات وتقييمات محددة" ⁽⁴⁵⁾. وتنطوي الاستعارة والاستعمار وفق هذا التصور على بعض خطابي تمثيلي ينهض بإعادة "هيكلية الممارسات التعليمية استناداً إلى النموذج السوقي، وقد تكون لها آثار ملموسة في تصميم المناهج وتدريسها، وفي الجهد والأموال المبذولة في التسويق وهلم جرا [...] ومن معالم الخطاب التعليمي المعاصر المنتشرة على نطاق واسع معاملة المناهج أو البرامج الدراسية باعتبارها سلعة أو منتجات يجري تسويقها على الزبائن" ⁽⁴⁶⁾.

إن الاستعمار الخطابي في سعيه إلى أن يقيم نظاماً خطابياً مكان آخر تمهيداً لاستيلاء حقل على آخر مثل الاستعارة يبرز، من جانب، بعض أبعاد الحقل المستهدف ويخفي أخرى حسب طبيعة قبول الحقل وللنظام الخطابي الذي يدعمه إعادة التعريف الشاملة. ومن جانب آخر عندما تصبح أنظمة خطابية أو استخدامات استعارية معينة هي الطريقة المهيمنة لتمثيل حقل اجتماعي محدد أو بعد من أبعاد الواقع في خطاب معين فإنه قد يصعب إدراكها وتحديد أبعادها كأنظمة خطابية مستعمرة أو استعارات إيديولوجية غير محايدة، وخاصة عندما يمر على لحظة الاستعمار وقت طويل أو هن الخطاب المستعمر واحتوي من لدن الخطاب المستعمر احتواء كاملاً، أو تحولت الاستعارة من كونها بدعية إلى استعارة حية أو ميتة، لأن الاستعمار الخطابي والاستعارة في هذه الحالة تأتي لتمثل الحس المشترك "الشائع" و"الطبيعي" للأشياء.

يتضمن استعمار الخطاب التعليمي من لدن خطاب السوق والثقافة الترويجية والاستهلاكية إعادة هيكلة نظم الخطاب التعليمية وأنواع الخطاب والأنماط والأساليب المرتبطة بها؛ وبعبارة أخرى إعادة هيكلة تمثيلات الفاعلين في الحقل التعليمي؛ متدخلين ومستفيدين، وتفاعلاتهم وممارساتهم وطرق وجودهم وكيونوتهم وعلاقاتهم الاجتماعية والمهنية الأفقية والعمودية. أما في علاقة ذلك بالممارسات والأبنية والأحداث الاجتماعية؛ الجانب الاجتماعي للاستعمار الخطابي، فيجد الفاعلون في التعليم والمعنيون به من مدرسين وإداريين ومتعلمين وآباء أنهم يتعرضون لضغوط ترمي إلى دفعهم إلى الانخراط في أنشطة جديدة تحددها، إلى حد كبير، الممارسات الخطابية المسندة بأنظمة الخطاب المستعمر، واللجوء إلى ممارسات خطابية جديدة داخل الأنشطة القائمة. ومثل هذه العمليات الخطابية والاجتماعية التجديدية تساهم في التغيير الخطابي من خلال تحويل أنظمة الخطاب، وفي التغيير الاجتماعي من خلال تغيير البنيات الاجتماعية على المدى البعيد.

يعد تسويق وتسليع الممارسات الخطابية لجوانب من التعليم، مثل تعليم اللغات مثلا، أحد أبعاد تسويق وتسليع التعليم بشكل عام؛ فقد أصبح منتظرا من المؤسسات التعليمية أن تعمل بشكل أكبر، تحت ضغط مصالح الدولة، كما لو كانت تؤدي وظائف وأعمالا عادية وتتنافس على بيع منتجاتها وتحقيق نسب مهمة من الأرباح وتسويق صورتها القائمة على النجاعة والفاعلية التنافسية، ويتعين عليها أن تمول عملياتها من مصادر خاصة؛ كأن تعرض بشكل متزايد عروضاً ومشاريع تنافسية للتمويل مثل فتح شعب جديدة واستقدام زبناء/ متعلمين جدد وطرح خدمات وبضائع جديدة للتداول بناء على استراتيجيات العرض والطلب. ومع أن هناك بونا شاسعا بين عمل النظام التعليمي والأعمال الاقتصادية الحقيقية وخاصة في اعتماده على الدعم الحكومي- ما أشرنا له سابقا من أن الاستعمار الخطابي مثله مثل الاستعارة يخفي بعض الجوانب ويبرز أخرى- إلا أنه، بتأثير من الخطاب المستعمر، "يعمل على إجراء تغييرات تنظيمية كبيرة ليتوافق مع طريقة عمل السوق من خلال إظهاره كسوق داخلية (internal market) يجعل الإدارات أكثر استقلالية من الناحية المالية واستخدام مقاربات إدارية تديرية (managerial approaches) في تقييم الموظفين وتدريبهم، وإدخال التخطيط المؤسسي (institutional planning) وإيلاء مزيد من الاهتمام لعمليات التسويق"⁽⁴⁷⁾. ويطالب طواقم

التدريس والإدارة على النظر إلى المتعلمين على أنهم زبناء، وتكريس الكثير من طاقاتهم للتدريس وتطوير طرائق تدريسية تركز على المتعلم/ الزبون. وهذه التغيرات "تتطلب مواصفات ومهارات جديدة من المدرسين وتُحوّل في الواقع إحساسهم بالهوية المهنية التي يتم تأسيسها وتشكيلها من خلال الممارسات والسلوكيات المتغيرة على مختلف المستويات، بما في ذلك الممارسات الخطابية المتغيرة. ويمكن أن نقول بأن وجود الكثير من المفاهيم الخاصة بالمهارات والكفايات والإدماج والتحويل في التعليم دليل على الاستعارة الإيديولوجية من خطاب السوق ووقوعه أسيرا في قبضة هذا الخطاب نتيجة عملية استعمارية وبالتالي إعادة تعريف العمليات التعليمية والتعلمية جميعها وفق منطق العمليات الإنتاجية والترويجية والاستهلاكية.

يتضمن الخطاب التعليمي "المسلع" تناقضا ذاتيا في إعادة تحديده لبعض جوانب العمليات التعليمية التعليمية وعناصرها؛ وأقصد هنا بالذات "المتعلم/ الزبون"؛ إذ يحدده إيجابيا من منطلق الزبون الذكي الذي يدرك ما يحتاج إليه ويتمتع بالقدرة على اختيار المناهج التي تلبي احتياجاته. لكنه من جهة ثانية يحدده بطريقة سلبية من خلال اعتباره مجرد عنصر أو أداة في عمليات الإنتاج؛ إذ "يستهدف للتدريب على اكتساب "مهارات" أو "قدرات" معينة، من خلال مناهج ترمي إلى تحقيق "أهداف تحصيل" محددة تصل إلى ذروتها برسم صورة للدارسين، وجميعها يتخذ صورة مخصصة ومحددة بدقة"⁽⁴⁸⁾. وهذا الوجود المزدوج للصورتين السلبية والإيجابية للمتعليم "تسهل التلاعب بالأشخاص من خلال التعليم، وذلك بأن تكتسي مظهرًا يمكن وصفه بأنها نبرات الحديث الفردية والاستهلاكية"⁽⁴⁹⁾. ويعكس مفهوم "الكفاية/ المهارة" الذي يقوم عليه التعليم المعاصر هذا التناقض والتعايش غير المنسجم بين الرؤيتين في هذا الحقل/ الخطاب التعليمي المستعمر من لدن مجال/ خطاب السوق، إذ إن المفهوم يتفق مع النظرة الفردانية والذاتية للتعليم، لكنه في الوقت نفسه يتماشى مع النظرة الموضوعية للتدريب الموجه أساسا إلى العمليات الإنتاجية والترويجية قابلة للتقسيم إلى أجزاء منفصلة (مهارات القراءة، مهارة الحساب، مهارة التصرف، كفاية التخطيط) تُدرس وتقيم في انفصال وتباع وتشتري باعتبارها بضائع متميزة ضمن مجموع البضائع والسلع المتاحة في سوق التعليم، مثلها مثل تقسيم العمل الذي يخضع له المنتج في خط الإنتاج.

يصل التطبيع مع مثل هذا الخطاب التعليمي والممارسات التي يقتضها أوجه عندما يتم تقبله كوضع عادي وينظر إلى التمثيلات والممارسات التي يفرضها ويستعيرها من خطاب السوق على أنها ممارسات اجتماعية عادية وحقائق مطلقة لا محيد عنها. ويقتضي دفع مثل هذا التطبيع عن مثل هذه التصورات وعيا مضادا ينطلق من الوعي التاريخي بعمليات الهيمنة ودور الخطاب في التمكين لبعض الفلسفات والرؤى التي تسند نظاما اجتماعيا وأخلاقيا يخدم مصالح جماعات بعينها على حساب جماعات أخرى. من هنا يأتي دور ضرورة الوعي الفردي والجماعي باللغة/ الخطاب وكيفية اشتغالها اجتماعيا بوصفها طرق وجود وكيونة (أساليب) وفعل وتفاعل (أنواع) وتمثيل إيديولوجي (خطابات) لفرض قيود على الممارسات والأبنية والأحداث الاجتماعية؛ هذا الوعي الذي من شأنه أن يحرر الفرد والجماعة من تلك الأغلال التي يفرضها المهيمنون على جل الحقول الاجتماعية عبر الخطاب ومخاطرها وتكاليفها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ويشتبك معها باعتماد آليات نفسها؛ أي ممارسات لغوية/ خطابية تحررية.

4- خاتمة

كانت الغاية التي توخيناها من هذه المساهمة هي دراسة الاستعارة بمنظور التحليل النقدي للخطاب، وتحديدًا في جانب الخطاب الذي يتجاوز التمثيلات الجزئية التي درجت عليها الأبحاث المنجزة في سياق الدلائل المعرفية إلى الاهتمام بالتمثيلات الكلية التي ترتبط بحقل من حقول العالم الاجتماعي أو جانب من جوانبه، لهذا انطلقنا من تحديد مفهوم الخطاب تحديدًا اجتماعيًا بنائًا ولسانيًا وأدبيًا أجناسيًا بوصفه تمثيلًا وفعلاً وكيونة، وحددنا علاقته الجدلية بالمستويات الاجتماعية ودوره الإيديولوجي في الهيمنة لنخلص إلى تصور يربط التحول في الخطاب بالتحول في المجتمع. ومن أجل تأكيد هذه الفرضية ادعينا وفقًا لفيركلاف أن أنظمة الخطاب تحدد الخطاب والأنواع والأساليب كما تحدد الأنظمة الاجتماعية الأبنية والممارسات والأحداث الاجتماعية إذ الأولى في المحصلة النهائية ما هي إلا الوجه السيميائي للثانية، ورغم أن النظام الاجتماعي ونظام الخطاب يتسمان بالتجريد وثابتان غالبًا إلا أن الممارسات الاجتماعية والأنواع الخطابية المرتبطة بالفعل الواقعي تؤثران في

الأحداث الاجتماعية والخطابية وفي الأبنية الاجتماعية والخطاب، وهو تأثير يعيد إنتاج أنظمة الخطاب وأنظمة المجتمع إذا كان محافظا، ويجدها إذا كان إبداعيا. ومن الطرق الإبداعية التي تسلكها الممارسة الخطابية أنها تتأثر بفعل الاستعمار الخطابي والاستعارة الإيديولوجية التي يدفع فيها بخطاب يمثل حقلا اجتماعيا معيناً إلى استعمار خطاب آخر وإعادة تشكيله من خلال إنتاج نصوص هجينة ابتداء سرعان ما تحدث تغييرا في الخطاب وبالتالي في نظام الخطاب والنظام المجتمعي.

وقد خالصنا وفق هذا الطرح إلى أن الكثير من الخطابات اليوم مهجنة استعمرت من لدن خطابات أخرى، ورغم أننا مثلنا فقط بخطاب التعليم إلا أن المؤكد أن خطاب السوق بقيمة القائمة على الاستهلاك والترويج والتسليع قد تغلغل في استعمار خطاب التعليم وبالتالي حقل التعليم فأعاد تعريف هذا الحقل وفق قيم السوق وأعاد تنظيم علاقات المتفاعلين فيه كما أعاد تشكيل جميع الممارسات وفق منطلقاته. ورغم أن المحاولة لم تتعمق في بحث مظاهر هذا الاستعمار إلا أنه يكفينا أنها حاولت أن تقدم إطارا منهجيا لدراسة الاستعارة الإيديولوجية والاستعمار الخطابي في مستوى الخطاب بالتحديد الاجتماعي البنائي.

مراجع البحث:

- سيمينو، إيلينا (2013)، *الاستعارة في الخطاب*، ترجمة: عماد عبد اللطيف وخالد توفيق، المركز القومي للترجمة، عدد 2022.
- فيركلاف، نورمان (2009)، *تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي*، ترجمة: طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى.
- فيركلاف، نورمان (2015)، *الخطاب والتغير الاجتماعي*، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى.
- فيركلاف، نورمان (2016)، *اللغة والسلطة*، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، مصر، عدد: 2555، الطبعة الأولى.
- يورغنسن، ماريان. فيليبس، لويز (2019). *تحليل الخطاب: النظرية والمنهج*، ترجمة: بوعناني شوقي، الطبعة الأولى، المنامة- البحرين.

- Fairclough, I., & Fairclough, N. *Analyse et évaluation de l'argumentation dans l'analyse critique du discours (CDA): délibération et dialectique des Lumières* Traduction par Sivan Cohen-Wiesenfeld.
- Fairclough, N. (2001). *The dialectics of discourse*. Textus, 14(2), 231-242. P 233.
- Fairclough, N. (2009). *A dialectical-relational approach to critical discourse analysis in social research*. Methods of critical discourse analysis, 2, 162-187. P 164, Fairclough, N. (2001). *The dialectics of discourse*. Textus, 14(2), 231-242.
- Fairclough, N. (2009). *A dialectical-relational approach to critical discourse analysis in social research*. Methods of critical discourse analysis, 2, 162-187.
- Fairclough, N. (2013). *Critical discourse analysis and critical policy studies*. Critical policy studies, 7(2), 177-197.
- Fairclough, N. (2013). *Critical discourse analysis and the marketisation of public discourse the universities*. In Critical discourse analysis (pp. 91-125). Routledge. P 93.
- Fairclough, N. (2013). *Critical discourse analysis and the marketisation of public discourse the universities*. In Critical discourse analysis (pp. 91-125). Routledge.
- Fairclough, N. (2013). *Language and ideology*. In Critical Discourse Analysis (pp. 56-68). Routledge.
- Goatly, A. (2008). *Washing the brain: Metaphor and hidden ideology* (Vol. 23). John Benjamins Publishing.

(1) فيركلاف، نورمان (2016)، *اللغة والسلطة*، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، مصر، عدد: 2555، الطبعة الأولى. ص 42.

(2) المرجع نفسه، ص 142 تصرف.

(3) فيركلاف، نورمان (2015)، *الخطاب والتغير الاجتماعي*، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى. ص 15.

(4) Fairclough, N. (2009). *A dialectical-relational approach to critical discourse analysis in social research*. Methods of critical discourse analysis, 2, 162-187. P 164, Fairclough, N. (2001). *The dialectics of discourse*. Textus, 14(2), 231-242. P 232.

⁽⁵⁾ Fairclough, N. (2013). Critical discourse analysis and the marketisation of public discourse the universities. In Critical discourse analysis (pp. 91-125). Routledge. P 95.

⁽⁶⁾ Fairclough, N. (2009). A dialectical-relational approach to critical discourse analysis in social research. Methods of critical discourse analysis, 2, 162-187. P 165.

⁽⁷⁾ فيركلاف، نورمان (2015)، الخطاب والتغير الاجتماعي. ص 87

⁽⁸⁾ يورغنسن، ماريان. فيليبس، لويز (2019). تحليل الخطاب: النظرية والمنهج، ترجمة: بوعناني شوقي، الطبعة الأولى، المنامة- البحرين. ص 135-136.

Fairclough, N. (2013). Critical discourse analysis and the marketisation of public discourse the universities. In Critical discourse analysis (pp. 91-125). Routledge. P 92.

⁽⁹⁾ فيركلاف، نورمان (2015)، الخطاب والتغير الاجتماعي. ص 87.

⁽¹⁰⁾ المرجع نفسه. ص 88.

⁽¹¹⁾ ينظر للتفصيل أكثر:

Fairclough, N. (2013). Language and ideology. In Critical Discourse Analysis (pp. 56-68). Routledge. P 59.

⁽¹²⁾ هناك من يترجم هذا المصطلح بـ "تطاق الخطاب، أو أوامر الخطاب، أو ترتيب الخطاب" ينظر مثلا: فيركلاف،

نورمان (2009)، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي. ص 424، 430.

⁽¹³⁾ Fairclough, N. (2009). A dialectical-relational approach to critical discourse analysis in social research. Methods of critical discourse analysis, 2, 162-187. P 166.؛ Fairclough, N. (2001). The dialectics of discourse. Textus, 14(2), 231-242. P 233.؛ Fairclough, N. (2013). Critical discourse analysis and the marketisation of public discourse the universities. In Critical discourse analysis (pp. 91-125). Routledge. P 93.

⁽¹⁴⁾ فيركلاف، نورمان (2016)، اللغة والسلطة. ص 50.

⁽¹⁵⁾ فيركلاف، نورمان (2015)، الخطاب والتغير الاجتماعي. ص 22.

⁽¹⁶⁾ ينظر: فيركلاف، نورمان (2015)، الخطاب والتغير الاجتماعي. ص 113 وما بعدها.

⁽¹⁷⁾ فيركلاف، نورمان (2016)، اللغة والسلطة. ص 56.

⁽¹⁸⁾ فيركلاف، نورمان (2009)، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي. ص 35.

⁽¹⁹⁾ فيركلاف، نورمان (2016)، اللغة والسلطة. ص 119.

⁽²⁰⁾ Fairclough, N. (2013). Language and ideology. In Critical Discourse Analysis (pp. 56-68). Routledge. P 58.

⁽²¹⁾ فيركلاف، نورمان (2015)، الخطاب والتغير الاجتماعي. ص 115.

⁽²²⁾ Fairclough, N. (2013). Language and ideology. In Critical Discourse Analysis (pp. 56-68). Routledge. P 56.

⁽²³⁾ فيركلاف، نورمان (2016)، اللغة والسلطة. ص 133.

⁽²⁴⁾ المرجع نفسه، ص 122.

⁽²⁵⁾ المرجع نفسه، ص 111.

⁽²⁶⁾ المرجع نفسه، ص 130.

⁽²⁷⁾ المرجع نفسه، ص 145.

⁽²⁸⁾ المرجع نفسه، ص 129.

⁽²⁹⁾ المرجع نفسه، ص 59؛ فيركلاف، نورمان (2015)، الخطاب والتغير الاجتماعي. ص 90.

⁽³⁰⁾ فيركلاف، نورمان (2015)، الخطاب والتغير الاجتماعي. ص 252.

⁽³¹⁾ فيركلاف، نورمان (2016)، اللغة والسلطة. ص 72، 107.

⁽³²⁾ ينظر المصدر نفسه. ص 72، 108.

⁽³³⁾ فيركلاف، نورمان (2016)، اللغة والسلطة. ص 84.

⁽³⁴⁾ Fairclough, N. (2013). Language and ideology. In Critical Discourse Analysis (pp. 56-68). Routledge. P 62.

⁽³⁵⁾ فيركلاف، نورمان (2009)، تحليل الخطاب؛ التحليل النصي في البحث الاجتماعي. ص 177.

⁽³⁶⁾ فيركلاف، نورمان (2015)، الخطاب والتغير الاجتماعي. ص 23.

⁽³⁷⁾ فيركلاف، نورمان (2016)، اللغة والسلطة. ص 63.

⁽³⁸⁾ المرجع نفسه، ص 65.

⁽³⁹⁾ Fairclough, N. (2009). A dialectical-relational approach to critical discourse analysis in social research. Methods of critical discourse analysis, 2, 162-187. P 164.

⁽⁴⁰⁾ Fairclough, N. (2013). Critical discourse analysis and critical policy studies. Critical policy studies, 7(2), 177-197. P 183.: Fairclough, I., & Fairclough, N. Analyse et évaluation de l'argumentation dans l'analyse critique du discours (CDA): délibération et dialectique des Lumières Traduction par Sivan Cohen-Wiesenfeld. P 4.

⁽⁴¹⁾ Fairclough, N. (2013). Critical discourse analysis and the marketisation of public discourse the universities. In Critical discourse analysis (pp. 91-125). Routledge. P 100.

⁽⁴²⁾ فيركلاف، نورمان (2015)، الخطاب والتغير الاجتماعي. ص 147

⁽⁴³⁾ المرجع نفسه، ص 256

⁽⁴⁴⁾ Goatly, A. (2008). Washing the brain: Metaphor and hidden ideology (Vol. 23). John Benjamins Publishing. p: 11

⁽⁴⁵⁾ سيمينو، إيلينا (2013)، الاستعارة في الخطاب، ترجمة، عماد عبد اللطيف وخالد توفيق، المركز القومي للترجمة، عدد 2022، ص 1. ص 80 بتصرف.

⁽⁴⁶⁾ فيركلاف، نورمان (2015)، الخطاب والتغير الاجتماعي. ص 256.

⁽⁴⁷⁾ Fairclough, N. (2013). Critical discourse analysis and the marketisation of public discourse the universities. In Critical discourse analysis (pp. 91-125). Routledge. P 101.

⁽⁴⁸⁾ فيركلاف، نورمان (2015)، الخطاب والتغير الاجتماعي. ص 157.

⁽⁴⁹⁾ المرجع نفسه. ص 257.